

موقف المستشرق هاري . أ. ولفسون من مسألة الصفات الالهية

في علم الكلام الاسلامي

اعداد

سليمة جمعة علي المشيبي

مقدمة :

يُعد هاري. أ. ولفسون (Harry Austryn Wolfson) (1887 – 1974) أحد المستشرقين الأمريكيين الذين اهتموا بدراسة علم الكلام الإسلامي وسعوا الي رد أصوله الي الفكر اليوناني واليهودي والمسيحي وذلك من خلال مؤلفه: "فلسفة المتكلمين في الإسلام "

وهذا البحث يتناول أحد القضايا التي أثيرت في علم الكلام الإسلامي وهي الصفات الالهية وكيف سعى ولفسون الي ردها الي الأصول المسيحية ونقدم في هذا البحث ردا علي هذا الزعم .

أهداف البحث :

نظراً لكون هذا البحث معني بدراسة موقف علم من أعلام مدرسة الاستشراق الأمريكي، وهو المستشرق هاري أ. ولفسون، تجاه علم الكلام الاسلامي، فقد كان من الضروري رسم معالم الخلفية التي يقع فيها موضوع هذا البحث والتمهيد له. ومن ثم فإني سأعمد الي:

- 1- رسم الخلفية المعرفية والتاريخية لظاهرة الاستشراق، من حيث تعريفها وبيان نشأتها ومسار تطورها التاريخي
- 2- توضيح أهداف الإستشراق بالمدرسة الأمريكية
- 3- تقديم ترجمة موجزة وكافية للمستشرق هاري ولفسون
- 4- تقديم لمحة تعريفية حول علم الكلام الإسلامي.

عليه تنقسم هذه الدراسة الي فصلين :

الفصل الأول: تعريف الإستشراق , نشأته , وأهدافه , وسمات الإستشراق الأمريكي .

الفصل الثاني : موقف المستشرق هاري .أولفسون من مسألة الصفات في علم الكلام الإسلامي .

الخاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث.

المصادر والمراجع .

الفصل الأول : الاستشراق

تعريف الإستشراق ، نشأته , وأهدافه، سمات الإستشراق الأمريكي

مما لا شك فيه أن الاستشراق يحمل في طياته, دوافع استعمارية قائمة علي أساس معرفة البلدان لتحسس مواطن الضعف فيها قبل مهاجمتها, للاستحواذ عليها بأقل التكاليف هذا من جهة, ومنعها من امتلاك أسباب القوة لتدوم سيطرتها عليها أكبر مدة زمنية من جهة ثانية, كما نال الاستشراق من

المناهج التعليمية والثقافية والفكرية في العالم العربي والإسلامي الكثير من التشويه بسبب الشبهات
.

أولاً: تعريف الاستشراق:

الاستشراق تعريب للكلمة الإنجليزية (Orientalism) مأخوذ من الاتجاه إلى الشرق.

كلمة "الاستشراق: مشتقة من مادة "شرق" يقال شرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت. وهي تعني مشرق الشمس، وترمز إلى مجال الاهتمام بهذا الحيز المكاني من الكون وهو الشرق.

أما من الناحية الاصطلاحية، فهناك العديد من التعريفات التي وضعت لمصطلح الاستشراق، والتي تختلف باختلاف وجهات النظر والمواقع الفكرية والرؤى الأيديولوجية والتاريخية، وقد تعددت المفاهيم من المستشرقين إلى العرب والمسلمين.

قال المستشرق (رودي بارت) أن: "الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه، أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة "شرق" وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي".

أما على صعيد الفكر العربي الحديث والمعاصر، هناك الكثير من الجهود الفكرية التي انصببت بغية صياغة تعريف دقيق للاستشراق، يجمع بين منطلقاته وغاياته وبين إيجابياته وسلبياته.

يعرف (أحمد حسن الزيات) الاستشراق بأنه: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه

مغموراً بما تشعه منارات بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقاً في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح" [1].

أما (إدوارد سعيد) – صاحب الكتاب الشهير بعنوان "الاستشراق" – فيعرف الاستشراق بقوله: "أن كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه، وسواء كان ذلك المرء مختصاً بعلم الإنسان "الانثربولوجيا"، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخاً أو فقيه لغة "فيلولوجيا" في جوانبه المحدودة والعامّة على حد سواء هو "مستشرق"، وما يقوم به هو أو هي بفعله هو "استشراق" [2].

والجدير بالذكر أن تعريف (إدوارد سعيد) ينطوي على إشارة واضحة إلى ما بات يعرف اليوم بالاستشراق الحديث أو المعاصر تمييزاً له عن الاستشراق القديم، ذلك أن موضوع الاستشراق- على المستوى المنهجي- فقد دلالاته بتحول هذا الحقل إلى تخصصات علمية محددة، في موضوعها، وإشكالياتها الخاصة حيث الاستشراق أصبح نتيجةً، أو هدفاً لمجموعة مناهج علمية مختلفة، حتى مؤتمرات المستشرقين، والتي تنعقد كل ثلاث سنوات أخذت تميل لعقد مؤتمرات ضيقة أكثر تخصصاً بشؤون العالم العربي والإسلامي، والهندي والصيني.

إن تعريف (إدوارد سعيد) ينطوي على تأكيد بأن الاستشراق بوصفه مفهوماً يشير إلى مجمل الاهتمام العلمي بشؤون الشرق، مازال وقطعاً لم يتوقف، بل وأنه مستمر اليوم بنشاط وفاعلية، ولكن مع ضرورة الأخذ بالاعتبار الميول التخصصية والتكوينات المنهجية والبنائية الجديدة التي باتت تميز الاستشراق اليوم عما كان عليه في السابق.

إن هذا التمايز بين قديم الاستشراق وحديثه، نلمحه في تعريف (أوليفيه موسى)- أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة فريبورغ في سويسرا، والذي ينص فيه على أن الاستشراق الحديث: "مذهب ثقافي جديد يقوم على تجديد وإعادة تأهيل الأطروحات الاستشراقية الكلاسيكية، ومتطلبات الدفاع عن قيم الحداثة والديموقراطية، في سياق يتميز بطابع أيديولوجي متنامي للعلاقات بين الشرق

الأوسط والدول الغربية، تعمل على تشجيع العودة إلى قراءة للمجال الإسلامي" [1]. وللإستشراق تعريفات كثيرة ومتنوعة لا يتسع المقام لذكرها جميعاً.

ثانياً: نشأة الاستشراق وتاريخ تطوره وأهدافه:

الاستشراق كاتجاه أقدم من ظهور المصطلح نفسه واعتماده وانتشاره، وعلى الرغم من أن مصطلح الاستشراق قد ظهر في الغرب منذ قرنين إلا أنه في الشرق قد ظهر قبل ذلك بكثير، وكلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق، وقد اختلف الباحثين في التحديد الدقيق لتاريخ نشأة الاستشراق، في أي سنة أو في أي فترة، فهناك من يرى أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام ويرى آخرون أن أول اهتمام بالإسلام والرد عليه بدأ مع (يوحنا الدمشقي) وكتابه الذي حاول فيه أن يوضح للنصارى كيف يجادلون المسلمين، وفي رأي ثالث يرى آخرون أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك والتفاعل الفعلي بين المسلمين والعالم المسيحي، الأمر الذي دفع الكنيسة المسيحية إلى محاولة التعرف على المسلمين.

ومن الآراء أيضاً في تاريخ نشأة الاستشراق أنه بدأ بقرار من (مجمع فيينا الكنسي) الذي دعا إلى إنشاء كراسي لدراسة اللغات العربية والعبرية والسريانية في عدد من المدن الأوروبية مثل باريس واكسفورد وغيرهما [2].

ويعتبر القرنان التاسع عشر والعشرون عصري الإزدهار الحقيقي لحركة الإستشراق؛ فقد ظهرت في هذين القرنين مؤسسات الاستشراق (الجمعيات الاستشراقية) التي نشطت في إصدار المجلات والمطبوعات الاستشراقية، فيما شهد القرن التاسع عشر بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين؛ حيث عقد أول مؤتمر دولي عام (1873) [1].

ثالثاً: أهداف الاستشراق وأغراضه:

لقد تعددت وتنوعت اتجاهات المستشرقين واهتماماتهم بالإسلام والمنتج الفكري والحضاري الذي يجسده الموروث العربي الإسلامي الضخم، بحيث تناولت كل فروع الثقافة الإسلامية تقريباً، وانصبت جهودهم وإسهاماتهم في العديد من المجالات. [2].

أهداف الاستشراق

سنعرض أهداف الاستشراق علي النحو الذي يتسق والمسار التاريخي التطوري لحركة الإستشراق، وذلك علي النحو التالي:

– الأهداف العقائدية

– الأهداف المعرفية

– الأهداف الاقتصادية

– الأهداف الإمبريالية والإستعمارية

– الأهداف الثقافية والإعلامية

إلا أن أهم أهداف الإستشراق اليوم، يتمثل في نشر الثقافة الغربية انطلاقاً من النظرة الإستعمارية التي ينظر بها إلى الشعوب الأخرى، وهي أهداف تصب في اتجاه مسح ومسح الهوية العربية والإسلامية في أوساط الشعوب نفسها.

رابعاً: سمات الإستشراق الأمريكي :

تأتي مدرسة الاستشراق الأمريكية، كنتاج طبيعي للمدارس الأوروبية التي سبقتها في هذا المجال، فعمر الاستشراق الأمريكي قياساً بالاستشراق الأوروبي يعد قصيراً، ولكنه امتداداً واستمراراً له حتماً، إلا أن الاهتمام الأمريكي قد انصب منذ البدايات علي الحملات التبشيرية

ويمتاز الاستشراق الأمريكي بعدد من الخصائص التي يمكن ابرازها فيما يلي [1]

1. الاهتمام الملحوظ بأحوال الشرق الاقتصادية والسياسية، على حساب الجوانب العلمية
2. التركيز على دراسات التاريخ الحديث والمعاصر أكثر من التراث في الفترة الإسلامية.
3. استقطاب الطاقات البشرية لخدمة الأمن القومي عبر الاستشراق.
4. العمل على إنجاز دراسات تخصُّ جهود الدولة في تأمين الموارد الضرورية لكيانها الاقتصادي.
5. العناية بالدراسات الإقليمية، والتركيز على العلوم الاجتماعية.
6. الإهمال شبه الكلي لدراسة اللغة والآداب الشرقية.
7. بعض خبراء الإسلاميات في الجامعات الأمريكية ليسوا من أصول أمريكية.

8. محاولة تحقيق توجيه الاستشراق لخدمة أهداف سياسية استعمارية، ما زال الشرق يشهد آثارها إلى اليوم.

9. العمل على خدمة الأهداف الصهيونية. ولا شك أن الاستشراق الأمريكي مازال الأقوى لقوة الدولة التي ينتمي إليها.

10. الاستشراق الأمريكي مازال الأقوى لقوة الدولة التي ينتمي إليها.

[1] – للمزيد في هذا الشأن أنظر ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي – الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية , الجزء الأول , ط1, دار المدار الإسلامي , بيروت, ص 157.

ومن أشهر المستشرقين الذين ينتمون الى مدرسة الاستشراق الأمريكية

كرنيلوس فانديك (Cornilius Van Dyke):

دنكان بلاك ماكدونالد (Dunckan Black MacDonald) (1863-1943):

جورج سارتون (George Sarton) (1884-1956):

جوستاف فون جرونباوم (Gustav Von Grunbaum) (1909م-1972):

جورج رنتز (George Rentz):

المستشرق هاري أ. ولفسون:

هاري أ. ولفسون (Harry Austryn Wolfson) (1887-1974) مستشرق أمريكي، مؤرخ لفلسفة العصور الوسطى اليهودية والإسلامية.

ولد في روسيا البيضاء سنة 1887، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1903، وتعلّم في جامعة هارفرد (في مدينة كمبردج ضاحية بوسطن). ومن سنة 1912 إلى سنة 1914 قام برحلة دراسية إلى أوروبا. وفي سنة 1915 عيّن مدرساً في جامعة هارفرد، وركي فيها أستاذاً في سنة 1920 للأدب العبري والفلسفة اليهودية، كما أنه بين عامي 1923 و1925 كان يلقي دروساً في المعهد اليهودي للديانة. واستمر أستاذاً عاملاً ثم متقاعداً في جامعة هارفرد حتى وفاته في سنة 1974. ¶

ويعد ولفسون علماً بارزاً من أعلام الاستشراق الأمريكي في القرن العشرين، فقد أنجز مشروعاً ضخماً لدراسة بنية الفكر الديني، وأشرف على نشر المتن الرشدي – نسبة إلى ابن رشد- ، وكان ولفسون مشهوراً في جميع أنحاء العالم بعمق وسعة نطاق حكمته ومعرفته الموسوعية الغزيرة، فله مجلدات ضخمة على بنية ونمو النظم الفلسفية من أفلاطون إلى سبينوزا، وتركزت معظم دراساته وأبحاثه على فلسفات العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث.

إنتاجه العلمي :

أنجز ولفسون أول كتبه في سنة 1918 وعنوانه "نقد قرسفس لأرسطو" (Crescas Critique of Aristotle)، لكنه لم يطبعه إلا في سنة 1929. ويشمل هذا الكتاب على تحقيق قسم من كتاب قرسفس ، وهو قسم يحتوي على دراسة للقضايا الخمس والعشرين التي ذكرها موسى بن ميمون في القسم الثاني من كتابه "دلالة الحائرين". وقد ترجم ولفسون هذا القسم إلى الإنجليزية، وقدم له بمقدمة مستفيضة، وزوده بتعليقات مفيدة.

وقد قادت هذه الدراسة إلى دراسة تفاسير ابن رشد لمؤلفات أرسطو.

وثاني كتبه الكبيرة هو دراسة عن:

"فلسفة اسپينوزا" - (The Philosophy of Spinoza)

ظهر في مجلدين كبيرين في سنة 1934.

وفي سنة 1947 صدر له كتاباً كبيراً ثالثاً بعنوان:

"فيلون اليهودي: أسس الفلسفة الدينية في اليهودية"

(Philo: Foundations of Religious Philosophy in Judaism)

وصدرت له طبعة ثانية في سنة 1948، وثالثة في سنة 1962.

وفي سنة 1961 أصدر مجلداً يجمع بعض مقالاته، بعنوان:

"فلسفة الدين: مجموع مقالات"

.(Religious Philosophy: A Group of Essays)

أما كتابه:

(فلسفة المتكلمين في الإسلام),(The Philosophy of the Kalam).

يُعد هذا الكتاب من أهم وأبرز الكتب التي تنتمي الى الجهود الاستشرافية المعاصرة، وهو الكتاب الأخير لهذا المستشرق الشهير. وهو من أهم ماصدر من المستشرقين في علم الكلام الإسلامي "فلم تكن مهمة المؤلف التي أخذها علي عاتقه هي تعقب التأثيرات المتباينة وإنما كانت وصف أصل وتنوع وبنية التعاليم الكلامية. وهو لم يدخر جهدا في الإلمام بكل صغيرة أو كبيرة تتعلق بموضوع بحثه إلا وعاهها وعرضها عرض المدقق الخبير. []

الفصل الثاني :

موقف ولفسون من مسألة الصفات الالهية في علم الكلام الاسلامي

مما لا شك فيه أن قضية الصفات الإلهية كانت ولا زالت من أهم القضايا التي شغلت المفكرين والمتكلمين المسلمين علي اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم بدرجة يمكن معها تلمس ما بين هذه المذاهب من تباين في بعض الآراء أحياناً، وما بينها من تقارب أو اتفاق علي بعض آراء أحياناً أخرى.

سيكون من المناسب تكوين إطار تعريفي بهذه المسألة بالتوازي مع ما قدمه (ولفسون) في هذا الشأن.

أولاً: تعريف علم الكلام الاسلامي :

يعرفه الإمام عضد الدين الإيجي (ت: 756 هـ) في المواقف بأنه : " هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، وإبراز الحجج، ودفع الشبه". وأضاف أيضاً: والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلّ الله عليه وسلم" [1]. وقال التفتازاني (ت: 791هـ): "الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية" [2].

كما أن لعلم الكلام تعريفات عدة من حيث موضوعه ومنهجه وأغراضه: فهو من حيث الموضوع المعرفة المتعلقة بأدراك الإيمانيات، ومن حيث المنهج تأسيس الاستدلال علي يقينيات عقلية، كالمدرجات الحسية، والمجربات. ومن حيث الغرض منه إنتاج المعرفة وإدراكها موضوعياً ليرتقي الإنسان إلى دروة اليقين . وقد تعددت أسماء هذا العلم تبعاً لتعدد الجهات المنظور إليه منها فأطلق عليه بالإضافة إلى علم الكلام، علم أصول الدين وعلم النظر والاستدلال وسماه أبو حنيفة الفقه الأكبر، وسمي أيضاً علم التوحيد لأنه يشكل أحد المفاهيم القرآنية الكلية التي تفسر العلاقة بين محاور الوجود (الله تعالى، الإنسان، الكون) [3].

ولقد خاض المتكلمون في موضوعين أساسيين هما [2].

1. الإلهيات (جليل علم الكلام): وهو مبحث عنى بصفات الباري وأفعاله وقدرته وعلمه وإرادته، إلى جانب البحث في مسائل القضاء والقدر والبعث والمعاد والنشور. وهذه المباحث سميت بـ "جليل الكلام".

2. **الطبيعيات (دقيق علم الكلام):** وعنى بالبحث في الطبيعة وأشياء العالم كلها: المادة، وصفاتها، وتحولاتها، وتفاعلاتها، والحركة، والسكون، والمكان، والزمان، والثقل، والممانعة، والوجود، والعدم وغير ذلك من الصفات الطبيعية والظاهرية، فخرجوا برؤية شاملة قامت على جملة مبادئ وأسس عقلية. وقد سميت هذه المباحث في ما يُعرف بالأمر الطبيعي بـ "دقيق الكلام"

ثانياً: نشأة مسألة الصفات الإلهية في علم الكلام الإسلامي والاختلاف فيها.

لم يكن هناك خلاف حول مسألة الصفات بين المسلمين باعتبارها ثابتة بنص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، حتى جاء من قال بنفيها ممن أطلق عليهم لاحقاً اسم (المعطلة)- أي الذين عطلوا الصفات وانكروها تمييزاً لهم عن الفريق المقابل من القائلين بإثبات صفات الله عز وجل من الأشاعرة والحنابلة والسلف. فالأصل الذي يستند إليه القائلين بإثبات الصفات الإلهية من المسلمين، هو ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تصرح بصفات الله عز وجل والأحاديث النبوية المؤيدة لها. يقول أحمد بن حنبل: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز القرآن والحديث".

ويقول ابن تيمية مبيناً موقف السلف من هذا الأصل: "ومذهب السلف أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وُصف الله به من ذلك فهو حق". - ويضيف ابن تيمية في مكان آخر: "وجماع القول في إثبات الصفات هو القول بما كان عليه سلف الأمة وأئمتها وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، ويصان ذلك عن التحريف والتتمثيل والتكيف والتعطيل، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فمن نفى صفاته كان معطلاً، ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته كان ممثلاً، والواجب إثبات الصفات ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات، إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل".

وعلى هذا، فقد سار المسلمون إزاء هذه المسألة في اتجاهين رئيسيين، وإن كان كل اتجاه منهما قد أنقسم فروعاً وروافد، فإنها جميعاً تلتقى على الأصل وتسير في نفس الاتجاه، فأولهما المثبتون للصفات الإلهية وثانيهما النافون للصفات ومعطلوها.

وبالتركيز على القائلين بالصفات، فقد انقسموا إلى عدة فروع، الفرع الأول وهم (المشبهة) وهم الذين أثبتوا الصفات لله عز وجل وبالغوا في الإثبات حتى إن بعضهم قد شبه الذات الإلهية بذوات المخلوقين واعتبروها أحياناً جسمًا له صفات الجسم. ويمثل هؤلاء بعض غلاة الشيعة أتباع هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وغيرهم من الروافض، والخابطية أتباع أحمد بن خابط من المعتزلة، والحشوية، والكرامية. ومن المشبهة أيضاً من شبه المخلوق بالخالق واعتقد أن روح الله عز وجل تحل في بعض أئمتهم أو في أشخاصهم، ويمثل هؤلاء حلولية الشيعة من فرق الخاطبية، والمنصورية، والبيانية، والمغيرية، والجناحية، والسبئية، وغيرهم. وكذلك حلولية الصوفية من أمثال أبي منصور الحلاج (ت: ٣٠٩ هـ) ومن انتهج نهجه. وممن أثبتوا الصفات الإلهية نجد (غير

المشبهة) وهم الذين أثبتوا الله عز وجل ما يليق بذاته من صفات تتسق مع ما ينبغي في تصورنا من كمال. فالله عز وجل حي قادر مرید عليم سميع بصير متكلم. إلى آخر الصفات التي وصف الله عز وجل بها نفسه مما ورد في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، واعتبروا أن هذه الصفات الذاتية والمعنوية، هي مما لا يليق نفيها عن الله عز وجل لما في ذلك من مخالفة صريحة للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فضلاً عما يوجبه ذلك من نقص في حقه عز وجل.

الأفعال، وكذلك أثبتوا صفات اليبدين والوجه ونحوها وذهبوا إلى القول بأنهم ليسوا مكلفين بمعرفة هذه الآيات والأحاديث التي وردت بالصفات الخبرية وتأويلها، إذ أن التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه عز وجل لا شريك له، وليس كمثل شيء وقد أثبتناه يقيناً. وهؤلاء هم جمهور السلف وأئمة الفقه ورجال الحديث، أمثال الإمام مالك، وسفيان الثوري، والإمام أحمد بن حنبل. وأما البعض الآخر من الصفتية، فقد أثبتوا الصفات الذاتية والمعنوية، ثم تأولوا الصفات الأخرى التي يحملها ظاهرها معان حسية مما يوهم بالتشبيه، وذلك لدعم مذهبهم في التنزيه من جهة وتحريزاً عن التفريط في صفات وأسماء نسبها الله عز وجل إلى نفسه من جهة أخرى. ويمثل هؤلاء جمهور الأشاعرة والماتريدية.

ويلاحظ أن جمهور الأشاعرة والماتريدية اعتبروا أن الصفات واجبة للذات الإلهية قائمة بها، وهي قديمة مثلها فالله عز وجل حي قادر مرید عالم سميع بصير متكلم، لكنها ليست هي الذات ولا غير الذات، بل زائدة على الذات، فليست مما يوجب تكثراً في الذات بوجه من الوجوه [1].

ثالثاً: موقف ولفسون من الصفات عند المسلمين .

ينطلق (ولفسون) في بيان المواقف والاختلافات بين الفرق الإسلامية حول مسألة الصفات من موقف (الواصلية) أتباع "واصل بن عطاء" القائلين بـ (نفي الصفات)، قائلاً: "استناداً إلى ما يروى عن التعاليم التي عارضها "واصل بن عطاء"، ظهر في الإسلام منذ بداية النصف الأول من القرن الثامن الميلادي الاعتقاد بأن بعض الألفاظ التي تنسب إلى الله في القرآن تعبر عن كيانات حقيقية لا جسمانية موجودة في ذات الله تعالى منذ الأزل، ولا يوجد في القرآن ما يضمن صحة اعتقاد كهذا. ولا يوجد أيضاً ما يضمن أنه قد انبثق تلقائياً. في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام- ذلك النوع من الاستدلال الذي حاول به المتكلمون المسلمون فيما بعد أن يدافعوا عنه من الخضوع لمؤثر من المؤثرات الخارجية. وكان مثل هذا المؤثر الخارجي إما فلسفة اليونان أو اليهودية أو المسيحية، ولدينا شهادة الشهرستاني بأن مشكلة الصفات لم تكن خضعت لتأثير الفلسفة اليونانية عند أتباع واصل إلا فيما بعد" [2].

والشهادة التي أشار إليها (ولفسون) للشهرستاني، هي قول هذا الأخير: "أن القاعدة الأولى عندهم القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة، وكانت هذه المقالة بدورها غير ناضجة وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين.. وإنما شرع أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهى نظرهم فيها إلى ردهم جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائي، أو حالتان كما قال أبو هاشم وميل أبي الحسن البصري إلى ردهما إلى صفة واحدة هي العالمية وذلك عين مذهب الفلاسفة" [3].

كما يشير الشهرستاني أيضاً إلى أنه: "كان بين المعتزلة وبين السلف في كل زمان اختلافات في الصفات، وكان السلف يناظرونهم عليها لا على مبدأ كلامي بل على قول اقناعي ويسمون بـ "الصفتية" فمن مثبت صفات الباري تعالى معاني قائمة بذاته ومن مشبه صفاته بصفات الخلق، وكلهم يتعلقون بظواهر الكتاب والسنة ويناضلون المعتزلة في قدم الكلام على قول ظاهر" [4].

على حد تعبير (ولفسون)- بأن الاعتقاد بثبوت الصفات الإلهية يدفع المرء بطريق غير مباشر الى الاعتقاد بالتثليث المسيحي، وبالمثل ما يروى عن الإيجي قوله: أن المعتزلة قد اتهموا مثبتي الصفات الإلهية بأنهم وقعوا في خطأ الاعتقاد المسيحي بالتثليث، وعلى هذا النحو يجب علينا أن نبحث في نظرية التثليث المسيحية عن أصل نظرية الصفات الإسلامية [1].
وقد اندفع (ولفسون) بناءً على هذه الانطلاقة التأسيسية الى البحث عن تفسير منطقي لهذا الانتقال الذي حصل لدى المسلمين من عقيدة التثليث المسيحية الى عقيدة الصفات الإسلامية [2].
وبالبداهة كما قررها (ولفسون) لا بد وأن تكون في البحث عن الدليل القائم على الاصطلاح (Terminology). فيشير الى أن هناك لفظان عربيان استخدمتا منذ بداية ظهور مشكلة الصفات الإلهية في الإسلام للتعبير عما يسمى بـ "صفة"، وهما:

1. لفظ "معنى".

2. لفظ "صفة".

بداية المشكلة كما تقول الروايات كانت عندما زعم "واصل بن عطاء" معارضته لأولئك الذين سلموا بثبوت الصفات، بقوله أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين. وإذا صح الافتراض السابق بأن أصل مسألة الصفات نابع من العقيدة المسيحية، فلا بد إذن من أن يكون هناك لفظان أساسيان مقابلان في المسيحية لهذين اللفظين اللذان استخدمهما المسلمون في بداية المشكلة، وربما يكونا قد استخدمتا عن طريق الصدفة من قبل المسيحيين العرب - الناطقين بالعربية- الذين كانوا يخوضون في نقاشات مع المسلمين، وربما لم يكونا أفضل لفظين مختارين، غير أنه لا يزال بالإمكان ردهما الى ما يطابقهما من الألفاظ اليونانية التي أحسن استخدامها في صياغة عقيدة التثليث [3].

إن لفظ "معنى" في العربية يستخدم مكافئاً للفظ "شيء"، وبالتالي فإن لفظي "معنى، شيء" يستخدمان على السواء ترجمة للفظ اليوناني (Pragma)- أي: شيء (Thing)- في أعمال أرسطو المنقولة الى العربية، حيث نجد لفظ "معنى" عند "اسحاق بن حنين"، كما نجد لفظ "شيء" عند مترجمين آخرين بما فيهم حنين بن اسحاق نفسه [4].

والحقيقة أن ما أشار إليه (ولفسون) بشأن كلمة "الصفة" من أنها (معنى) في العربية يكاد يكون هو الصحيح، فالجرجاني (740-816هـ)، يعرف الصفة، بأنها: "الاسم الدال على بعض أحوال الذات، نحو طويل وقصير وعافل وأحمق وغيرها" [5]. أما الوصف فهو: "عبارة عما دل على الذات باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه أي يدل على الذات بصفة كأحمر فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود وهو الحمرة فالوصف والصفة مصدران كالوعد والوعيد والمتكلمون فرقوا بينهما فقالوا الوصف يقوم بالواصف والصفة تقوم بالموصوف وقيل الوصف هو القائم بالفاعل" [6].
وعند "المنائوي" الصفة هي: "ما دل على معنى زائد على الذات محسوس كالأبيض أو معقول كالعلم" [7].

ويبين (ولفسون)، أنه في المسيحية أيضاً استخدم لفظ "أشياء" (Things) بالإضافة الى لفظ "أقنيم" (Hypostases) و"أشخاص" (Personae)، في وصف الأشخاص الثلاثة في الثالوث تأكيداً لوجودها الفعلي، فقد وصف "أوريجن" (Origen)- أحد اثنين من آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية للمرة الأولى صياغة نظرية التثليث في لغة فلسفية- الأب والابن بأنهما "شيان بالأقنيم. وكذا "ترتوليان" * الذي احتج بأن الكلمة (The Word) ليست صوتاً ونطقاً بالفم، بل هي "شيء"

(Res) وشخص، كما يصف كل شخص من الأشخاص الثلاثة بأنه "شيء جوهري"، مع أن لفظ "براجما" اليوناني لم ينجح في أن يصبح لفظاً اصطلاحياً يشير إلى أعضاء الثالوث، فإن استعماله لم يخف تماماً، إذ نجده يستخدم في الـ (Formula Prolixa) لمجمع أنطاكية عام (343م) كمكافئ للفظ (Prosopon) [1].

ويمضي (ولفسون) في استقدام الأمثلة على استخدام الألفاظ المقابلة والمماثلة والمكافئة في المصادر المسيحية، حتى يصل إلى أن كل ذلك إنما يعكس لفظ "براجما" اليوناني والذي يعني "الشيء"، وأن تلك الاستخدامات تتطابق تماماً في دلالتها مع استخدام المسلمين للفظي "شيء" و"معنى" في اللغة العربية يستنتج (ولفسون) أنه ومنذ بداية القرن التاسع الميلادي- زمن ظهور المعتزلة- كان المسيحيون الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي يستخدمون لفظ "براجما" بدلاً من لفظ "أقانيم" ولفظ "أشخاص"، أو إلى جانبها في وصف أعضاء الثالوث، وترجموا لفظ (Pragmata) إلى العربية، متأثرين بعقيدة التثليث المسيحية بـ "الأشياء" أو بـ "المعاني". وتبعاً لذلك فمن المعقول أيضاً الزعم بأنه عندما قدم أهل السلف من المسلمين عقيدتهم في ثبوت الصفات وأطلقوا على كل صفة لفظ "معنى" فإنهم كانوا يستخدمونه على أنه مكافئ للفظ "شيء" أي بمعنى "الشيء" [2].

وفيما أرى أن استنتاج (ولفسون) في مطابقة معنى لفظ "شيء" في العربية مع معنى لفظ (كلمة) في العقيدة المسيحية، غير موفق البتة، فمعنى كلمة "صفة" في العربية لا يكون "الشيء" بحد ذاته، بل ما يدل على الشيء وهو امارة عليه، وكذا بالنسبة لدلالة لفظ (كلمة) في المسيحية والتي ربما تقابل لفظ (كلام) في العربية من حيث أنه الكلمة والكلام صفة لله عز وجل، ولكن اللفظان لا يحتملان معنى (شيء) أو الشيء بذاته، بل ما ينصرف عن الشيء من فعل، وعليه عد الكلام في الاسلام صفة فعلية من صفات الله والكلام هو عين الصفة لا عين الموصوف، وهذا بون شاسع بين الكلمة في المسيحية التي توصف بأنها شخصية ثانية أو أقنوم ثاني لجوهر واحد هو الله ذاته.

وكيف غفل ولفسون !! أن الفرق الكلامية الإسلامية كانت قد اختلفت في هل الصفة مجرد إطلاق الاسم، أي أن لها معنى مجازي فحسب أو أن لها معنى حقيقي؟- فذهب الأشاعرة إلى أن الصفة لها معنى حقيقي، وذهب المعتزلة إلى أن الصفة مجرد وصف الواصف، وأنها تعني نفى الضد، وذهب الماتريديّة إلى أن للصفات معنى حقيقي ثابت، وليس مجازياً وأنها ليست مجرد وصف الواصف، أو مجرد نفى الضد. كما اختلفت الفرق الكلامية الإسلامية في مسألة الاسم والمسمى والتسمية، فذهب جمهور الأشاعرة والماتريديّة إلى أن الاسم هو المسمى دون التسمية بل وأن التسمية قد تختلف فيما بينها فنجد عدة تسميات لشيء واحد، كما تختلف التسمية أيضاً من لغة إلى أخرى. وقالت المعتزلة "إن الاسم هو التسمية" [3]- وقد أشار الجرجاني إلى أن الاسم ينصرف في دلالاته إلى اسم عين واسم معنى. "فالاسم هو ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين: وهو الدال على معنى يقوم بذاته- كزيد وعمرو- وإلى اسم معنى: وهو ما لا يقوم بذاته سواء كان معناه وجودياً كالعلم أو عدمياً كالجهل" [4]. في حين أن (ولفسون) اكتفى بتقرير أن لفظ "صفة" حل محل لفظ "اسم" عند المعتزلة، وعن طريقهم ثبت استخدام لفظ "صفة/ صفات" على لفظ "اسم/ أسماء" [5].

الخاتمة

ونخلص إلى القول :

1- ان المستشرق (هاري.أ.ولفسون) قد وظف كل معارفه وقراءاته العميقة والموسوعية، واستفاد من كل اقتباساته الاصطلاحية وترجماته للمصطلحات والألفاظ بين عدة لغات من بينها العبرية والعربية واليونانية، في تدعيم رؤيته واستنتاجاته المنطقية والدلالية، إذ عمد الى شرح معاني ومدلولات ألفاظ المتكلمين المسلمين، من خلال ردها الى ما يقابلها في الفلسفات الأخرى ، ليثبت أن مصطلحات كثيرة في الصفات عند المسلمين مقتبسة من هذه الفلسفات .

2- وفي كل الأحوال، يظل علم الكلام جزءاً مهماً من تراث الفكر والفلسفة الإسلامية من حيث أنه يمثل الجانب الأكثر إثارة للجدل والخلاف في التراث الإسلامي، وأيضاً من حيث أنه كان أسبق في ظهوره ونشأته من الفلسفة عند المسلمين، بل وكان عاملاً من عوامل نشأتها، لاسيما أن موضوعاته تلتقي مع مسائل المباحث التقليدية للفلسفة: الوجود المعرفة والقيم.

3- أن الاستشراق وعلى رغم دراساته القيمة في الشرق والغرب معاً، قد جانب الصواب في كثير من اتجاهاته وبحوثه ونظرياته، وأغفل الدراسات التقييمية والمقارنة والموضوعية، وأن كثيراً من الدارسين عندما يتحدثون عن الاستشراق إما أن يبالغوا في أهميته للدراسات العربية الإسلامية، وإما أن يتعصبوا لفكرة من دون دليل أو حجة أو برهان، وأحياناً من دون فهم لعلمائه وأثر ثقافتهم فيهم، ثم إن الاستشراق في ذاته يحاول بكل ما له من وسائل وقوة وأفكار، أن يفرض مفاهيمه على العالم العربي والإسلامي بأسره، ومن ثم يجب أن يدرس بعناية بالغة، والوقوف على منتج المتجدد دوماً، وربطها بكل معايير النقد والتصويب الموضوعية والمنهجية الممكنة، بل ومواكبة منهجياتها الغربية نفسها، لكيلا يكون هناك قصور في الاستجابة لمتطلبات التصدي لمثل هذا التأسيس العنصري العقيم، والخضوع له والانقياد لمسلّماته دون تحقيق .

قائمة المصادر المراجع

- 1- هاري أ. ولفسون: فلسفة المتكلمين في الإسلام , ترجمة وتعليق : مصطفى لبيب عبد الغني, المجلس الأعلى للثقافة ,2009.
- 2- محمد عوض هزايمة: النزعة الاستعلائية في الفكر الغربي, مجلة المنارة. المجلد (1) , العدد (1) , 2009 .
- 3- إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار: المعجم الوسيط, تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، 1960.
- 4- يحي مراد : معجم أسماء المستشرقين, كتب عربية بدون مكان وسنة النشر.
- 5- []- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- 6- []- إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة السابعة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2005.
- 7- عبد الله ابن عبد الرحمن الوهبيي : حول الاستشراق الجديد : مقدمات أولية , ط1, مجلة البيان – مركز البحوث والدراسات , الرياض, 1435هـ.
- 8- [2]- علي النملة : الإستشراق في الأدبيات العربية , مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية, الرياض, 1414هـ-1993.
- 9- عبد الله ابن عبد الرحمن الوهبيي : حول الاستشراق الجديد : مقدمات أولية , ط1, مجلة البيان – مركز البحوث والدراسات , الرياض, 1435هـ .
- 10- محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري , دار المعارف , مصر, 1997م .
- 11- ناصر على محمد أحمد برقي: أثر الاستشراق والتغريب في مناهج تعليم اللغة العربية والتاريخ - محاولة لرصد ما يحدث في مناهج التعليم المصرية، المؤتمر الدولي السادس عشر، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 2009.
- 12- ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي – الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية , الجزء الأول, ط1, دار المدار الإسلامي , بيروت, 2002 .

- 13- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.
- 14- عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: المواقف في علم الكلام، بدون بيانات الطبعة والناشر وسنة النشر.
- 15- سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت/ 791هـ): شرح المقاصد في علم الكلام، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816هـ-): معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، الطبعة الأولى، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004. ص 114م، دار المعارف النعمانية، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1419هـ، 1989م.
- 16- محمد باسل الطائي: فلسفة العلم الإسلامية – دراسة ريادية في دقيق الكلام، بحث مقدم إلى مؤتمر مساهمات العرب والمسلمين في العلوم والتكنولوجيا، جامعة اليرموك، أيلول 2002.
- 17- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816هـ-): معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، الطبعة الأولى، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.
- 18- عبد الرؤوف بن المناوي (952- 1030هـ): التوقيف على مهمات التعريف، تحقيق: عبد الحكيم صالح حمدان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، 1410هـ- 1990.
- 19- القاضي الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2000.
- 20- محمود اصغر علي محمد أحمد برقي: أثر الاستشراق والتغريب في مناهج تعليم اللغة العربية والتاريخ - محاولة لرصد ما يحدث في مناهج التعليم المصرية، المؤتمر الدولي السادس عشر، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 8- 9 نوفمبر.

الروابط والمواقع الالكترونية

1- <http://kenanaonline.com/users/Drnasser/posts/104581-14-Nov-2009>.